جي دي موبســـان

١٨٤٠ – ١٨٩٣

للأستاذ حسن فتحي خليل

١ – نشأته وتكوينه وأسلوبه

ولد موبسان في قصر ميرو مسنيل في ٥ أغسطس سنة ١٨٤٠ وتلقى دروسه ببلدة ييفتو أولاً ثم ببلدة روان . وأمضى في ربوع مقاطعة نورماندي أسعد سني صباه وشبابه ، حرا طليقاً بعد دراسته اليومية ، كطائر سعيد . وكان يهيم بالطبيعة الساحرة في تلك المقاطعة حتى انطبعت في ذهنه صور كثيرة من حياة الفلاحين المحيطين به

وفي عام ١٨٧٠ التحق بالجيش المحارب وانغمر في ميدان الحرب كغيره من الشباب حينئذ ، وعاش في محيطها وتشبعت بها نفسه ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ذهب إلى باريس والتحق بوزارة البحرية أولاً كموظف صغير ، ثم انتقل منها إلى وزارة المعارف . وكان في أشد الإحتياج إلى مرتبه الحكومي ليقتات منه حتى تسمح له الظروف الحسنة التي تؤهله لأن يبدأ حياته الأدبية التي عاهد نفسه على بدئها منذ زمن بعيد

وقد هيأت له تلك الوظيفة أن يختلط بطبقة الموظفين ، وأن يطلع على خفايا حياتهم وكل أحوالهم ، ولكن تلك النظرة التي كان ينظر بها إليهم كانت بشعور مزيج من العبث والسخرية . وانتقشت تلك الصور في ذهنه حتى انسابت من قلمه ، وظهرت واضحة جلية في قصصه

وقد صرفته قوة بنيته وحبه للهو والعبث المغرقين في بداءة حياته عن مطالعة الأدب ، فلم يجهد نفسه في ذلك المضمار الإجهاد الكافي لأديب ناشئ يحاول أن يكون نفسه . غير أن تلك الحياة التي كان يحياها قد أضافت صوراً جديدة إلى تجاربه إذ اختلط بالمجتمع الصاخب وانغمر في ملاهيه . وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه كان مندفعاً نحو تلك الحياة اللاهية ليكمل منها صوراً لأدبه ؛ ولكن الحقيقة أنه إنما كان مندفعاً نحوها لكي يشعر نفسه بأنه يعيش المعيشة التي ترضي جسده وتشبع رغباته الجامحة . فقد كان قوي البنية ، مفتول العضلات ، محباً للرياضة وخاصة التجديف ، جريئاً لا يهاب إنساناً

كان فلوبير أباه الفكري ؛ إذ هو الذي أخذ على عاتقه أن يدخله إلى دنيا الأدب . وتحت سيطرته بذل موبسان كل جهده لأن يرتفع بأسلوبه إلى المرتبة التي تؤهله لأن يكون شاعراً مجيداً ؛ وكانت هذه هي منتهى آماله . كان فلوبير يحدثه دائماً عن كرامة الفن وواجبات الفنان ؛ كما أنه غرس في نفسه كراهته للبرجوازيين والسخرية منهم ومن اعتقاداتهم العادية في كتبه . كما أخبره عن أهل الأدب في عصره وحدثه عنهم حديثاً مستفيضاً ؛ وطبعه على الاستخفاف بكل أدب تجاري رخيص ، ونصحه بالجد والاهتمام بتجويد كتابته ، وجعل نفسه مثلاً له يسير على منواله ؛ حتى أنه أشركه معه في تأليف كتابه « بوفار وبيكوشيه » فكان يرسله إلى بعض بقع الساحل النورماندي ليعود فيقص عليه ما رآه وما استولى عليه من إحساسات وشعور ، فيرسم الطبيعة كما يراها دائماً وليتحرر من آراء زولا شبه العلمية التي كانت سائدة يومئذ ، وأن تكون كل اتصالاته بالطبيعة فحسب[1]

وبذلك أحيا موبسان كل الصور المنطبعة في مخيلته منذ طفولته وصباه ، وجعل ينظر إلى الطبيعة بمنظار صريح مستقيم سهل ، وبدل قصارى جهده لأن يكون أسلوبه طبيعياً كمشاهداته ، فخلا أسلوبه من المبالغات الرومانتيكية المشاهدة في أسلوب زولا والمحسنات اللفظية كأسلوب جونكور

وكان يطلع أستاذه فلوبير على كل ما يكتبه فيصححه له ويرشده إلى طريق الصواب . وأهم مؤلفاته في ذلك الوقت ، وقت الاجتهاد والتحضير هي قصة « الدكتور هيرا كلوس جلوس » وأهم ما يميزها وضوح نظرية التشاؤم التي بدأ يأخذ بها موبسان . كما كتب في تلك الفترة عدة مسرحيات وقصص وأشعار على الخصوص . وقد جمع ما أعجبه من شعره في كتاب صغير اسمه : « مجموعة شعر »

وكانت تلك القطع التي نشرها إنما هي في الحقيقة أقاصيص شعرية ويلاحظ أنها بداءة طيبة لما جاء بعدها . وأهم تلك القطع

(١) انظر : Le Naturalisme Français par Pierre Martino

« على ضفاف النهر » وقد رسم فيها ذكريات غرامه وألبسها ثوباً رومانتيكياً متحدثاً عن الغرائز الحرة واللذات الجسدية .

ثم نشر قصته المشهورة Boule de Suife فنجحت نجاحاً عظيما وتنبه الكل له وصعد درجات المجد وعاهد نفسه منذ ذلك اليوم أن يكون قصصياً بدلاً من أن يكون شاعرا رغماً عن إرادة أستاذه فلوبير . ومع أنه كان قد أخفى تلك القصة عن أستاذه إلا أنه حين قرأها أعجب بها أشد الإعجاب وهنأه عليها .

ومات فلوبير فتحرر موبسان من سيطرته الأدبية التى كان يفرضها عليه ، وأصبح حراً فى معتقداته وسار فى الطريق التى رسمها لنفسه .

٢ — أفكاره وآراؤه

كانت لموبسان عين ثاقبة تلاحظ الصور وحركاتها بسرعة فائقة ودقة آلة فوتوغرافية ، فسرعان ما تنطبع تلك المرئيات فى ذهنه فيتعمق فى فهمها جيداً حتى يهضمها تمام الهضم . فمن صباحه إلى مسائه كان يجمع ويلاحظ كل ما يفيده فى مهمته الأدبية ، ولذلك نلاحظ أن كتاباته لم تكن تظهر بمظهر الكتاب النفسيين (السيكولوجيين) بل هى مقتطعة من الحياة إذ فيها ألوانها وأشكالها وحركاتها .

وتدور قصصه على ناحيتين : أولاهما الناحية المرحة والحياة الاجتماعية الصاخبة التى كانت تشتهر بها فرنسا ، والأخرى قصصه عن الريف النورماندى وذكريات حياته التى قضاها فيه وحديثه اللذيذ عن الأرض والطبيعة والفلاح .

وتترجم كل مؤلفاته فى مختلف أطوار حياته ونظرياته عن المجتمع . ففى مؤلفاته الأولى نلاحظ السخرية اللاذعة . ففى قصة Boule de suife لم يترك فرصة سواء فى العربة أو الحانة دون أن يهزأ بالأشراف والطبقة المتوسطة والراهبات . ثم ظهرت فى الحقبة التى تلى ذلك من حياته إحساسات الرحمة والشفقة . أما فى نهايته فكان التشاؤم ومشاغله ومتاعبه النفسية أوضح ما فى كتبه فى ذلك الحين . فأفكاره فى ارتفاعها وانخفاضها إنما كانت تتبع ميزان صحته الجسدية فى قوتها وهزالها .

كان أستاذه فلوبير يعتقد أن الفن يخفف من عبء الحياة ويجعلها سهلة لينة ، ولم ييأس من تقدم العلوم ولم ينكر بلوغ النجاح ، إلا أن موبسان الذى كان يستمع لتلك الآراء لم تكن لديه الثقة الكافية فى الحياة . فمن مبدأ حياته كانت فلسفته اليائسة المتشائمة فوق العادة . فلم تجذبه فكرة فلوبير السليمة بقدر ما جذبته حكمة شوبنهور القائلة : « إنه لا سعادة على الأرض » وبالرغم من تكرار موبسان لنظريته المتشائمة فى قصصه كثيراً لم تكن لتستند على براهين قوية . بل كل ما فى الأمر أنه كتبها بشعور صادق قوى . وكان يبعث ذلك التشاؤم نظرته المجردة إلى الحياة الواقعية . فكان يعتقد أن الكون مجموعة متضاربة متطاحنة من القوى ، وأن العلم لا يعطينا سوى فكرة ضئيلة عن هذه القوى بواسطة آلات أولية ناقصة فى بعض الحالات فقط . وأنه ليس هناك أمل فى التقدم أو النجاح ، إذ أن نظرية التقدم ما هى إلا نظرية فاشلة ، وأن الإنسان حيوان أرقى قليلاً من الحيوان الأعجم . ولعل هذه النظريات قد تبادلها غيره من قبل إلا أنها كانت شديدة التأثير على شعوره . وإنما يعود ذلك إلى مرضه الذى أصيب به ، حتى أنه أصبح يخاف الرسائل التى تصله كما كان يفزع من علامات الود والمحبة التى يظهرها أصدقاؤه ، إذ خيل إليه أنها محاولات اعتداء على حريته . فهو يفسر نظريته هذه بأن هؤلاء الأصدقاء إنما يشعرون بفراغ كبير فى حياتهم ، فيحاولون أن يتعلقوا بأهداب إنسان آخر يملأون به ذلك الفراغ . وبذلك أصبح موبسان يعتقد أن الصداقة والحب إنما هما نفاق وسراب ، وأن الصلة بين كل رجل وآخر معدومة ، إذ لا يمكن لأحدهما أن يفهم الآخر تمام الفهم . وعلى ذلك يجب على كل فرد أن يكون وحيداً ، وبذلك امتزجت رغبته فى الوحدة بخوفه من المجتمع . ألا أنه فى وحدته كانت تنتابه له خيالات يتوهم معها أن هناك شبحاً آخر يشاركه مجلسه فيبعث الخوف إلى نفسه ويدفعه دفعاً نحو الاختلاط بالأحياء الذين لم يعد يفهمهم جيداً . وقد زاد ذلك التعذيب خوفه من الشيخوخة والموت . فكانت فلسفة التشاؤم التى يسير على هديها تدفعه إلى الثورة دائماً . وأخيراً لم يجد منفذاً لهذه الخواطر والأفكار التى تعج بها رأسه حتى كان يرفض أى مناقشات أدبية ، وأصبح يعتقد أنه ليست هناك أية قيمة للأدب ، وأنه إنما يكتب تلك الأسطر لكى يكتسب منها بعض المال

وفى عام ١٨٨٩ بدأ يفكر فى الانتحار كما يتضح لنا من قصة l'endormeuse إذ تخيل فيها انتحاراً قانونياً يسمح لليائسين أن يناموا إلى الأبد باسمين مرتاحى الضمير . وقد طرقت هذه الفكرة مخيلته كثيراً فى أيامه الأخيرة حتى هم بتنفيذها ، وكان حينئذ فى طريقه إلى الجنون الذى أراحه من عناء هذه الدنيا وتفكيره الأسود فى كل أحوالها

وعلى ذلك فإذا تدبرنا حال هذا الشاب الموفور الصحة فى مبدأ حياته ، والذى هده المرض فى أخريات أيامه حتى ساقه إلى الجنون فبدأ يسمع نداءات الموت ترن فى أذنيه ، أمكننا أن نتتبع النغمات الصادرة من مؤلفاته فى هذه الأطوار

٣ — نهايته

سبق أن قلنا إنه بالرغم من مظهره القوى فإن صحته بدأت تتهدم منذ عام ١٨٨٤ ؛ ثم ظهرت عليه بوادر الجنون فى عام ١٨٩١ . وفى أول يناير سنة ١٨٩٢ حاول الانتحار فى بلدة (كان) ولكنه فشل . وأدخل مصحة الدكتور بلانش حتى توفى فى ٦ يوليو سنة ١٨٩٣ وهو على حاله من الجنون

٤ — مؤلفاته

يعتبر موبسان من أشهر كتاب الأقصوصة ؛ ويمكننا أن نضمه الآن إلى زمرة الكتاب الكلاسيك ؛ إذ أن أعماله تدرس بالمدارس لأنها غذاء طيب للعقول . ففى أمريكا وألمانيا تعتبر مؤلفاته من أهم مختارات الدراسة بمدارسها . كما وضعت أعماله فى برامج الامتحانات العليا بفرنسا ؛ وقدمت عنه بعض الرسالات كما جمعت أعماله وطبعت كلها فى مجلد كامل كأعمال فلوبير وبلزاك . فمن عام ١٨٨٠ إلى عام ١٨٩٠ نشر موبسان حوالى ثلثمائة أقصوصة جمعت فى مجلدات هى :

La Maison Tellier	سنة ١٨٨١
Clair de Lune	
Contes de la Becasse Mlle. Fifi	سنة ١٨٨٣
Miss Harriell	سنة ١٨٨٤
Yvette	
Les Sœurs Rondoli	سنة ١٨٨٥
La Petite Rogue	
Contes du jour et de la nuit	
M. Parent	سنة ١٨٨٨
Le Rosier de Mme Husson	سنة ١٨٨٧
La Horla	سنة ١٨٨٦
Toine	سنة ١٨٩٠
L'Inutile Beauté	سنة ١٨٨٩
La Main Gauche	سنة ١٨٨٩

كما نشر ست قصص طويلة وثلاثة كتب عن الرحلات وأربع مسرحيات .

حسن لطفى خليل

الصـــديق أبو بكـــر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمنه ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد ٤٣ مليما داخل القطر
و ٨٠ مليما خارج القطر

ملتزمة النشر
مكتبة النهضة
٩ شـــارع عدلى بمصر

ظهر حديثاً

الجزء الرابع من كتاب

فيض الخاطر

للأستاذ أحمد بك أمين

ثمن كل جزء من الأجزاء الأربعة ٢٥ قرشاً
عـــدا أجـــرة البريد

ملتزمة نشره
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى بالقاهرة